كتاب "مسألة الإيمان" لأبي الحسن الأشعري
إمام أهل السنة والجماعة

قرأه وعلق عليه: خالد محمد عبده(*)

هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبدالله بن موسى بن بلال بن أبي بُردَةَ عامر ابن صاحب رسول الله ﷺ أبي موسى الأشعري.

ولد رحمه الله سنة ستين ومائتين (٢٦٠) بالبصرة، وقيل: بل وُلِد سنة سبعين ومائتين (٢٧٠)، وفي تاريخ وفاته اختلاف، منها أنه توفي سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة (٣٣٣)، وقيل سنة أربع وعشرين (٣٢٤)، وقيل سنة ثلاثين (٣٣٠)، توفي رحمه الله ببغداد ودفن بين الكرخ وباب البصرة.

كان أبو الحسن الأشعري سُنِّيًا، ثم درس الاعتزال على أبي علي الجَبَّائي وتبعه في الاعتزال ثم تحول عنه، عبر رؤيا رآها في المنام، ذكرها ابن عساكر، حكاية على لسان الإمام الأشعري على النحو التالي:

«فرأيتُ النبيَّ ﷺ، فقال لي: ما صنعت فيما أمرتك به؟ فقلتُ: قد تركتُ الكلامَ ولزمتُ كتابَ الله وسنتك، فقال لي: أنا ما أَمَرْتُك بترك الكلام، إنما أمرتك بنصرة المذاهب المروية عنِّي، فإنها الحق، فقلتُ: يا رسول الله كيف أدع مذهبًا تصورتُ مسائله وعرفتُ أدلَّته منذ ثلاثين سنة لرؤيا، فقال لي: لولا إني أعلم أن الله تعالى يمدُّك بمددٍ من عنده لما قمت عنك حتى أبين لك وجوهها، وكأنك تعد إتياني إليك هذا رؤيا أو رؤياي جبريل كانت رؤيا، إنك لاتراني في هذا المعنى بعدها، فجدٌ فيه فإن الله سيمدك بمددٍ من عنده.

قال: فاستيقظت وقلتُ ما بعد الحقِّ إلا الضَّلال، وأخذتُ في نُصرةِ الأحاديثِ في الرؤيةِ والشفاعةِ والنَّظرِ وغير ذلك، كان يأتيني شيء والله ما سمعته من خصم قَطّ ولا رأيته في كتابٍ، فعلمت، أن ذلك من مدد الله تعالى الذي بشرني به رسول الله ﷺ»[1].

(*) باحث مصري في الإسلاميات والتصوف.

(١) انظر: ابن عساكر الدمشقي «تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري»، ص ٤١. ط دمشق (١٣٤٧هـ).

من مؤلفاته:

١ - الإبانةُ عنْ أُصولِ الدِّيانةِ.

٢ - الحثُّ عَلى البحثِ.

٣ - رسالةٌ إلى أهْلِ الثَّغرِ.

٤ - اللمع في الرَّدِ على أهلِ الزيغِ والبدعِ.

٥ - مقالاتُ الإسلاميين واختلافُ المصلِّين.

٦ - مسألةُ الإيمان [وهو الكتاب الذي بين أيدينا].

* * *

مسألة الإيمان

يُعدُّ كتاب "مسألة الإيمان" من الكتب الثابتة نسبتها إلى الإمام الأشعري، حيث نصَّ على ذكره ونسبته للإمام ابنُ عساكر في «تبيين كذب المفتري» مستدركًا على ابن فورك ثبته الذي ذكره فيه مؤلفات الإمام، قائلا:

«قال الشيخ الإمام الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ آخر ما ذكره أبو بكر بن فورك من تصانيفه، وقد وقع إليَّ أشياء لم يزكرها في تسمية تواليفه، فمنها: رسالة الحث على البحث، ورسالة في الإيمان وهل يُطلق عليه اسم الخلق»[١].

وللرسالة نسخ خطية عديدة، منها:

* نسخة تشستربيتي ٥/٣٨٥٤ ورقات (٥٠ - ٥٢)، وهي نسخة الأصل التي اعتمدتها في نشر النص، بخلاف نشرة المستشرق (سبْيّتا)[٢] في كتابه عن الإمام الأشعري ومذهبه، فقد اعتمد نسخة «درب الجماميز!) وتقع نشرته في الصفحات (١٣٨ - ١٤٠) من كتابه، والترجمة الألمانية للنص في الصفحات (١٠١ - ١٠٤).

(١) ابن عساكر: تبيين كذب المفترى، ص ١٣٦.

(٢): سبْيتا (١٨١٨ - ١٨٨٣م) ولهلم سبيتا Willhelm Spitta: مستشرق الماني. أقامَ مدة بمصر. له كتاب في «قواعد العامية العربية في مصر»، وكتاب عن «أبي الحسن الأشعري ومذهبه» كلاهما بالألمانية، نُشر الثاني في (ليبسج) ١٨٧٦م، وكان سبيتا من أوائل من دعوا إلى الكتابة بالعامية، وبإبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني سنة ١٨٨٠م، وكان يعمل مديرًا لدار الكتب المصرية آنذاك، وأثبت في كتابه الأول جدولا مقارنًا بين الحروف العربية والحروف اللاتينية التي يقترحها.

ولنسخة تشستربيتي مصورة في مكتبة الجامعة الأردنية.

* وتنقل الدكتورة فوقية حسين في مقدمة تحقيقها للإبانة عن فؤاد سزكين أنه ذكر نسخة أخرى لهذه الرسالة بدار الكتب المصرية [١٨٣/١ علم كلام ١١٤٥ من ورقة ١٦ - ١٨ القرن السادس الهجري]. وظهر بالبحث أن الرسالة التي تحمل هذا الرقم ليست لأبي الحسن الأشعري، ولكن للحسن البصري.

ثم تضيف: «غير أنه توجد نسخ أخرى لهذه الرسالة بدار الكتب تحت رقم: ٢ مجاميع، ميكروفيلم ٤٩٥٣، و٢٦ مجاميع ميكروفيلم ٤٥٤٢، و٦٠٨ مجاميع ميكرفيلم ٤٩٩٠ من ورقة ٢٠٣ إلى ٢٠٤ بعنون فصل».

وقد تتبَّعتُ ما ذُكر أعلاه، فوجدت النسخة ٢٦ مجاميع ميكروفيلم ٤٥٤٢ تتضمن كتاب بداية السول فى تفضيل البتول، ويليه الإيمان للأشعري ص ١٦ - ١٧، وقد قابلت بينها وبين نسخة تشستربيتي.

أما النسخة ٦٠٨ مجاميع ميكروفيلم ٤٩٩٠ فبعد مراجعتها تبين التالي: أن الرقم المقصود ٦٠٧ مجاميع ٢٠٣ - ٢٠٤، وهى بعيدة تمامًا عن مسألة الإيمان، إذ هي عبارة عن فصل في الإيمان، ويبدأ بقوله: «الإ يمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالقلب عند أكثر أهل السنة والجماعة، وقال الشافعي: الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان والعمل بالأركان، وقالت الكرَّامية..».

أما النسخة التي تحمل رقم: ٢ مجاميع، ميكروفيلم ٤٩٥٣ ص ٨ - ٩، وتتضمن مجموع [كتب تصوف للسادات الوفائية نفعنا الله بهم وبعلومهم] فهي بالفعل نسخة أخرى من مسألة الإيمان حديثة النسخ، ولعل الناسخ نقلها عن النسخة ٢٦ مجاميع ميكروفيلم ٤٥٤٢ لاتفاقهما في المحتوى بداية من سند النص المختلف عن نسخة تشستربيتي، ونهاية بخاتمة النصّ.

مَسْأَلَةُ الإِيْمَانِ

تَأْلِيفُ أَبِي الْحَسَنِ الأَشْعَرِي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ[١]

أَخْبَرَنَا الشيخُ الإمامُ المؤرِّخُ قطبُ الدِّين أبو الخير مُوسى ابن الإمام الربَّاني القُدوةِ تقيِّ الدين أبي عبد الله مُحمد الفقيهِ البويني، قراءةً عليه ونَحنُ نَسْمَعُ، قَالَ: أنبأنَي الشيخُ أبو محمد عبدُ الوهابِ بن رواج قال: أَخْبَرَنا شيخُ الإسلامِ فَخرُ الحُفَّاظِ أبو طاهر أمدُ السِّلفيُّ، قالَ قرأتُ على أبي الفضل جعفرِ بن إسماعيلَ الأنصاريِّ، عَنْ أبي مُحَمَّدٍ عَبدِ اللهِ بن الوليدِ بن سعدٍ الأنصاريِّ، حدثنا أبو الحسن المصريُّ عليُّ ابن الحسن بن فهر، قال: سَمِعْتُ أبا بَكرٍ إسماعيل بن أبي مُحمدٍ الأزديَّ بمكَّةَ، أخْبَرني أبو الحسن أحمدُ ابن مقسم ببغْدادَ[٢]، قال: أملى عليَّ أَبُو الْحَسنِ عليُّ بن إسماعيلَ الأَشْعَرِيُّ هَذِهِ الَمسْأَلَةَ بِبَغْدادَ، قَالَ:

الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق، صلى الله عليهم أجمعين.

سألتَ وفقنا الله وإياكَ عن اختلاف أصحابنا من أهل السنة والمثبتين للصفات في الإيمان، هل هو مخلوق أو[٣] غير مخلوق، وذكر ما احتجت به كلّ طائفة منهم، وإيضاح الحق عندي في ذلك.

فممن ذهب إلى أنه مخلوق: حارثٌ المحاسبيُّ وجعفر بن حرب وعبدالله بن كلاب وعبدالعزيز المكّيّ، وغيرهم من أهل النظر، وكان من حجّتهم: أنهم اعتبروا الأشياء فوجدوها كلّها مخلوقة سوى الله تعالى بصفاته، فلما خرج الإيمان عن أن يكون صفة لله تعالى، وكان من فعل العبد ووصفه عُلِم أنه مخلوق.

---

(١) ترد مقدمة الرسالة في ب على النحو التالي: بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله» مسألة في الإيمان من كلام الشيخ أبي الحسن الأشعري».

(٢) يرد السند في النسخة ب على النحو التالي: «أخبرنا أبو محمد عبدالوهاب بن أبي المنصور الأمين بثغر الإسكندرية، حدثنا أبو طاهر أحمد بن محمد، قال: قرأتُ على الشيخ أبي الفضل جعفر بن إسماعيلَ بن خلف الأنصاري، عَنْ ابي مُحَمَّد عبدالله بن الوليد بن سعد الأنصاري، حدثنا أبو الحسن عليُّ بن الحسن ابن فهر المصري، قال: سَمِعْتُ أبا بكر إسماعيل بن أبي مُحمد الأزديَّ بمكَّةَ، اخْبَرني أبو الحسن أحمدُ ابن محمد بن مقسم ببغْداد، قال: أمْلى عليَّ أبو الحن عليُّ بن إسماعيل الأشعريُّ هَذِهِ المسألة».

(٣) فى الأصل : «أم»، وما اثبت من ب.

وذُكر عن أحمد بن حنبل وجماعة من أصحاب[١] الحديث أنهم قالوا: إن الإيمان غير مخلوق، وهذا أشبه بالاتباع الذي أمر رسول الله ﷺ، فقال: اتبعوا ولا تبتدعوا، فكلُّ بدعة ضلالة.

ولهذا القول من النظر وجهٌ يؤيده ويدلُّ على صحته، وهو أن صفة المخلوق ما كان بعد أن لم يكن، ووُجد بعد أن لم يكن موجودًا، فاحتجنا أن نعرض هذا المعنى على الإيمان ونعتبره، هل يصلح أن يُضاف إلي ويُوصف به، أو هو مضادٌّ له ومنتفٍ عنه؟ فوجدناه غير صحيح العبرة، ولا مستقيم في الحجة؛ لأنا لو قلنا: إنه مخلوق كنَّا قد أثبتنا أنه غير موجودٍ قبل خلقته، فكأن الحال التي سبقت وتقدمته لم يكن فيها إيمانٌ ولا توحيدٌ وفي[٢] هذا القول من الفساد ما لا خفاء فيها[٣]، ولكنّا نقول : إنه لم يخل حالٌ من الأحوالِ من إيمان بالله تعالى وتوحيدٌ له قبل خلق الخلق وبعده.

فإن قيل: فالإيمانُ لايكون إلا من مؤمن، وفي قولك [ما يُؤدي إلي][٤] إثباتُ الإيمان قبل أن يُوجد مؤمنٌ.

فالجوابُ: أن الإيمان في هذا المعنى الذي وصفنا بمنزلة التوحيد الذي لا يكون إلا من مُوحِّد، ولم يزل الله موحّدًا لنفسه، واصفًا لها، مُعظّمًا مُصدِّقًا لها[٥]، وليس الإيمانُ فيما يعْقِلُه أهل اللغة أكثر من التصديق، أفيحيلُ أحدٌ من ذوي العقول أن يكون الله تعالى مُصدِّقًا لنفسه موحّدًا لها مع ما ورد في الكتابُ به، ومن[٦] ذلك: قال الله تعالى: ﴿إني أنا الله لا إله إلا أنا﴾ [ووصف نفسَه بالصِّدق، ومَنْ وصفَ نفسَه بالصّدقِ فقد صدَّقها، كما أنَّ مَنْ][٧] وصف نفسه بالوحدانية فقد وحَّدَهَا، ومن وصف نفسه بالعظمة فقد عظّمها، وهذا ما لا يُحيله أحدٌ من أهل اللغة وذوي العقول، وإنما خاطب الله تعالى أولي الألباب والعقول باللسان العربي، على ما يُعقل من معانيه، وتصرُّف وجوهه.

وفيما وصفنا دلالةٌ على أن الإيمان إذا أُطلق ولم يُضفْ إلى مخلوق كان داخلاً في جملة صفات الله تعالى، ومُشابهًا لها، مع أن نصَّ الكتاب قد ورد بذلك، قال الله تعالى: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار﴾.. إلى آخر الآية.

---

(١) في ب: «أهل».

(٢) في ب: «ففي».

(٣) في ب: «به».

(٤) زيادة من ب.

(٥) في ب: «مُعظمًا لها مُصدِّقًا».

(٦) في ب: «منه».

(٧) زيادة من ب.

فسمى نفسه مُؤمنًا في جملة أسمائه التي سمّى بها نفسه، وليس أحد أن يصرف هذا الاسم عن ظاهره، ولايعدل به عن وجه يحتمله إلى وجه غيره، بل هو المؤمن على جميع الأحوال عزّ وجل أن يُشبّه بالمخلوقين أو يُوصف بصفات المحدثين، وإنما دخلت الشبهة على من قال بخلاف هذا عند قياسه الفاسدِ، وذلك أنه نظر إلى المخلوقين، فاعتبر بأحوالهم[١] وصفاتهم فوجدها مخلوقة، ووجد الإيمان من صفاتهم فقضى عليه أنه مخلوق.

أفتراه لم يعلم أن العلم والكلام من صفات المخلوقين وهما من الله عزّ وجل غير مخلوقين ولامحدثين، ومن زعم أن كلام الله عز وجل أو علمه مخلوق أو محدث، فقد كفر بالله العظيم.

فإن قال قائل: متى قلت: الإيمان غير مخلوق ولا محدث، فقد زعمت أنه قديم، ولا يجوز أن يكون مع الله تعالى شيء قديم إذ كان ولاشيء معه، ثم خلق الأشياء.

فالجواب: أن هذا القول يطرق لأهل الزيغ أن يقولوا في كلام الله تعالى وفي علمه، وصفاته كلها إنها محدثة مخلوقة، وما يُحتاجُّ به على من قال ذلك وادعاه في القرآن والعلم والصفات، فمثله يحتجّ على من ألزم هذا الإلزام[٢].

فإن قيل: وما الذي منعك أن تجعل التوحيد محدثًا؟

قيل: لأن الله تعالى وحّد نفسه في كتابه، فقال: ﴿إنا الله لا إله إلا أنا﴾ فلو جاز أن يكون التوحيد محدثًا جاز أن يكون هذا القول الذي وحد به نفسه محدثًا ، وهذا يؤدي إلى القول بأن القرآن محدث، وذلك كفرٌ.

وإذا لم يجز أن يكون هذا القول محدثًا وكان الله تعالى قد وحّد به نفسه ثبت أن التوحيد غير مُحدث ولا مخلوق.

والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

تمّت مسألة الإيمان

حسبنا الله ونعم الوكيل[٣].

---

(١) في ب: «أحوالهم».

(٢) في ب: «التزم هذا الالتزام».

(٣) في ب: ترد خاتمة الرسالة على النحو التالي: «تمت المسألة والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم».